﴿يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم»[١].

أجلُّ هؤلاء الحماقى لا يشعرون أن مدّ الأموال والبنين ليس مسارعة في الخيرات، فهم يسارعون في ذلك البلاء المبين تلوَ ما يمد الله لهم فيه زعما أنه مسارعة في الخيرات، وإنما المسارع في الخيرات هم:

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ
وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ
لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۖ وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ
لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا
تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ
عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ
يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ
رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ
وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ
﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ
ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي
طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا
يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ
مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الخشية هي للقلب، والإشفاق عناية مختلطة بخوف زائد عليها حين يُعدَّى بمِن كما هنا، فالمؤمنون لأنهم يخشون ربهم، فهم مشفقون على أية حال، ولا سيما حال النعمة الموفَّرة عليهم، فخشيتهم من ربهم تجعلهم خائفين في الرخاء والبلاء، ولا سيما الرخاء إن قصروا وغمروا فيها غافلين، فتبدَّل نِعمة الله نِقمَة ونَعمة، محاسبين أنفسهم في صرفها دون تهدُّر، بكل حائطة ومراقبة وتحذر، فالمؤمن الخاشي إذا يجمع يجمع إحساناً وإشفاقاً، وغيره يجمع دائباً إساءة وغمرة وإغراقاً، يقول: إنما أوتيته على علم عندي ولا يحسب لله حسابه، ولا يرجو ثوابه ولا يخاف عقابه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

سواء فيها الآيات الآفاقية والأنفسية، بل هم يعيشون كل الآيات إيماناً

بها، والكون كله آيات الرب دون إبقاء ولا استثناء فيعتبرون بضمنها كلاً من الرخاء والبلاء من آيات البلاء فيشفقون خشية من ربهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

وكيف يأتي نفي الإشراك بربهم بعد الإيمان والإشفاق من خشية ربهم، وهذا السلب يتقدم كل إيجابات الإيمان؟

علّه لأنه يعني الإشراك في شؤون الربوبية، لا - فقط - الألوهية، ومن الإشراك بالرب رئاء الناس، والانعطاف إلى غير الرب في أية زاوية من زوايا الحياة طويلة وقصيرة.

فذلك - إذاً - سلب يجرف عن إيجابيات الإيمان كُدرتَها، وتُبلور الإيمان عما يشوبه من شرك خفي قد لا يحسب بشيء.

فمثَله مثل الإسلام بعد الإيمان الذي هو بعد إسلام، فهنا سلب بعد إيجاب كان بعد سلب، وأين سلب من سلب وأين إيجاب من إيجاب كـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ. . .﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ عن طاعة لله، من مال وعلم ومعرفة، ومن نفس وأي نفيس يمكن إيتاءه في سبيل الله و﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ ماضياً بعد ﴿يُؤْتُونَ﴾ دليل استمرارهم في ذلك الإيتاء، فهم يعيشون حياة الإعطاء والإيتاء في سبيل الله «و» الحال في إيتائهم أن ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ علهم مقصرون أم هم قاصرون لـ «أنهم إليه راجعون».

والوجل هو استشعار الخوف، فهم تستشعر قلوبهم خوفاً من الهول

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

المطَّلَع حين يرجعون إلى ربهم، استعظاماً لقدر الله حق قدره، واستصغاراً لأقدارهم أنفسهم بما آتوا من صالحات.

أتراهم وجلة قلوبهم لمعاصيهم ومآسيهم؟ كلا! حيث ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ هو إتيان ما فرض عليهم وندب فيه إليهم: «يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه»(١).

وهكذا يكون المؤمن الصالح، وَجِل القلب إنه راجع إلى ربه، وافداً إليه من غير زاد مهما زاد فيما أتى من طاعة ربه، وليس يعني وجلهم أنهم في شك من الثواب.

على ما آتوا، بل هم بين خوف من تقصيرهم ورجاء لرحمة ربهم دون أن يروا استقلالاً لأعمالهم في الثواب، بل يستقلونها لاستحقاق الثواب.

و«لو أن العباد وصفوا الحق وعملوا به ولم تعقد قلوبهم على أنه الحق ما انتفعوا به»(٢) ولا ينافيه وجل قلوبهم استصغاراً لأعمالهم وعدم بلوغ تقواهم حق التقاة، فـ «إن المؤمن يعمل بين مخافتين بين أجل قد مضى لا

(١) الدر المنثور ٥: ١١ أخرج جماعة عن عائشة قال قلت يا رسول الله ﷺ قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ اهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا ولكن الرجل يصوم... وأخرجه مثله جماعة عن أبي هريرة عنه ﷺ إلا «وهو مع ذلك». وفي نور الثقلين ٣: ٥٤٥ عن الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن قدرت أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا يثني عليك الناس وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله ثم قال قال علي بن أبي طالب: لا خير في العيش إلا لرجلين رجل يزداد كل يوم خيراً ورجل يتدارك مَنيّتَه بالتوبة وأنى له بالتوبة والله لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبل الله تبارك وتعالى منه إلا بولايتنا أهل البيت ألا ومن عرف حقنا ورجا الثواب فينا ورضي بقوته نصف مد في كل يوم وما ستر عورته وما أكن رأسه وهم في الله في ذلك خائفون وجلون ودوا أنه حظهم من الدنيا وكذلك وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ثم قال: ما الذي آتوا والله مع الطاعة والمحبة والولاية وهم في ذلك خائفون ليس خوفهم خوف شك ولكنهم خافوا أن يكونوا مقصرين في محبتنا وطاعتنا.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤٦ في محاسن البرقي عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . .

يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله عز وجل قاض فيه»[(١)].

أجل وإن قلباً يستشعر يد الله عليه وعين الله ترعاه، ويحس آلاءه التي لا تحصى في كل نبضة فيستصغر ويستقل كل ما آتاه تعبداً لربه وأعطاه لخلقه في سبيله، شاعراً بالهيبة المحلِّقة على كيانه ككل، مشفقاً أن يلقى الله وهو مقصر - وقطعاً هو قاصر - في حقه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾:

يصارعون الشرور والأشرار ويسارعون في الخيرات مع الأخيار، قضية تلك اليقظة والتطلُّع الدائب، وعجلة سيرهم إلى ذلك المصير هي عدم إشراكهم بالله وإيمانهم بآيات الله، وخشيتهم وإشفاقهم من الله وإيتائهم ما آتوا وجلةً قلوبهم في سبيل الله، فبطبيعة الحال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دنياً وعقبى، دون مسارعة في أموال وبنين إلا ما يقدمونه في سبيل الله، ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ دون «إليها» فقط، بل ﴿لَهَا﴾ حيث أن ذلك السباق لزام حياتهم فهم غامرون فيها ليل نهار ما عاشوا، لا يهمهم إلا أن يسبقوا الرفاق في ذلك السباق.

أم هم لأجل الخيرات سابقون في كل ميادين السباق، دون ما يسارع لها غيرهم وهم فيها متصارعون غامرون.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

لا نكلفهم في سباقهم هذا إلا وسعهم دون عسر ولا حرج، فكلٌّ يعتقد حسب وسعه دون عسر ولا حرج، وكلٌّ يعمل حسب وسعه دون عسر ولا حرج.

(١) المصدر في الكافي عن حمزة بن حمران قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن مما حفظ من خطب النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: . . .

وكما ولا ﴿نُكَلِّفُ﴾ يعم أصل التكليف الخارج عن الوسع، كذلك الحالات الاستثنائية للأحكام الميسورة حيث تنقلب فيها التكاليف معسرة أو محرجة، كما وأن ﴿نَفْسًا﴾ تؤيد ذلك الشمول.

﴿وَلَدَيْنَا﴾ علماً لدنِّياً نعلم عسرهم ويسرهم، وسائر الشهود الرسالية والملائكية والعضوية والأرضية ﴿كِتَٰبٌ﴾ استنسخناه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بسبب الحق الثابت الذي حصل، وبسبب الحق عند الله، وبمصاحبة الحق الذي يحمله الكتاب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك النطق الشهادة، نطق القالة ونطق الصورة ونطق السيرة المستنسَخة المسجَّلة في سِجلَّات الأعمال والأحوال والأقوال.

ولقد كان يحمل علي بن الحسين عليه السلام غلمانه قائلاً: «ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين عليه السلام ربك قد أحصى عليك ما عملت كما أحصيت علينا ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فاذكر ذل مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة وكفى بالله شهيداً، فاعف واصفح يعف عنك المليك...»[2].

فليس نكرانهم لأنهم كُلِّفوا فوق السعة معرفياً.. وعملياً فهم معذرون:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

هذه صفات المؤمنين وحالاتهم، وأما المسارعون في خلافها فهم معاكسون لهم تماماً ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه لهؤلاء، وفي

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤٧ في المناقب لابن شهر آشوب في مناقب زين العابدين عليه السلام وكان إذا دخل شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم أظهر الكتاب وقال: يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤدبك؟ فيقرون أجمع فيقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم...

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي يذكرهم عن غفلتهم فهم غامرون في لجج الجهالة، خامرون عقولهم بخُمُر الغفلة «و» الحال ان ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي يعمله المؤمنون، ومن دون ذلك الذي وصفناه لهم، غمرة هامرة خامرة ليس لهم من دونها شاعرة إلا شاغرة، أولئك هم في غمرة المسارعة في الخيرات، وأولاء في غمرة الشهوات، في حيرة تغمرها وغمة تسترها، حيث الغمرة هي ما وقع الإنسان فيه من أمر مذهِل، وخطب موغِل، مُشبه بغمرات المياه التي تغمر الواقع فيها وتأخذ بكظم المغمور بها.

هذا، وقد تعني ضمائر الجمع الثلاثة المؤمنين أنفسهم و﴿بَلْ﴾ إضراب عما ذكرت لهم من صفات تحدد مواقفهم الإيمانية ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ المذكور لهم فلا تحدُّ خيراتهم حدودٌ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ دون «هم عاملوها» فاللام تجعل أعمالهم الصالحة لزاماً لغمرتهم.

أم تعني الآية كلتا الضفتين كلاً بغمرته، وأين غمرة من غمرة وأين مسارعة من مسارعة؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

ولأن الضفَّة الشريرة المسارعة في الشهوات موصوفة من قبل بـ ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] فـ ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ هنا يقتسم الغامرين إلى مترفين وسواهم، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ﴾ تُنهي الغمرتين إلى حين العذاب موتاً وسواه، فالغامرة المترفة تجأر، والغامرة المؤمنة لا تجأر، والجؤار هو صوت الوحش عند الفزع، فهم الوحش مستوحشين من عذاب الله المفاجأ رجاء النصر ولكن:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

ولأنه ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1] فسلب النصر من عنده سلب لمطلق النصر، وهكذا يخاطَبون بعد غياب من ذكراهم ليكون أوقع في استيحاشهم تقريعاً لهم وقطعاً لآمالهم فإنه:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿قَدْ كَانَتْ﴾ مؤكَّدة متواترة بينة ﴿ءَايَـٰتِى﴾ المذكرة لكم عن غمرتكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ليل نهار ﴿فَكُنتُمْ﴾ على طول خطها ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ آبائكم الأولين، وأعقابكم أنفسكم مدبرين ﴿تَنكِصُونَ﴾، رجوع القهقرى، مرتجفين إلى جهّال وجهالات، مسامحين عما عندهم من عقول وذكريات:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن سماع الآيات، أم إذا سمعتهم فعن تدبرها والاعتبار بها ﴿سَـٰمِرًا﴾: متحدثاً بالليل، ليلة الجهالة والشهوة، ليلة الحيونة والاستكبار، ليلة التقاليد العمياء، دون ضوء من الأضواء آفاقية وانفسية، حال أنكم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ هذياناً هاجراً للحق، حاجزاً عما يحق أن يسمع ويطبَق، مُطلِقون ألسنتكم بهجر القول وفحشه وأنتم محلّقون - حول أصنامكم في سامركم - بالكعبة.

فلقد كان هؤلاء يرمون الرسول ﷺ في ظلام، ويطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في نواديهم، وهنا القرآن لما يجأرون يذكرهم بسمرهم الفاحش وهجرهم الطائش في الليل الأليل الدجى، بهراء هم الهجى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

«أ» سمعوا «فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» حتى يعرفوا حقه الرسالي «أم» أعرضوا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

عنه لأنه أتى ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ وقد أتاهم نفس ما أتاهم وزيادة، فما هو بدعاً من الرسل ولا قوله الرسالي بدع من القول!

وهم محجوجون إن لم يدَّبَّروا حيث أنكروا رميةً في ظلام، ومحجوجون إن تدبروا وأنكروا بحجة أنه أتى ما لم يأت آبائهم الأولين وقد أتى!

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

«لم يعرفوه» منذ دعوته إذ لم يدّبّروا قوله أم هو بدع من القول، «أم لم يعرفوه» رغم كافة الحجج الرسالية المحلقة عليه ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ رغم هذه الحجج الدامغة البارقة، أم لم يعرفوه قبل رسالته فقد لبث فيهم عمراً من قبله أفلا يعقلون، فقد عرفوه قبل بالأمانة والصدق، فهل الأمين الصادق مع الناس يتحول إلى خائن كاذب مع الله ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1] فقد عرفوه سابقاً وفي الحال بأحواله المصدِّقة لكل حاله وقاله دون أي كذب وإدغال، ثم لما جاءهم بما ينجيهم من غمرة الجهالة أنكروه.

ذلك وكما عرفه أهل الكتاب بما بُشر به بمواصفاته في كتاباتهم، ولمّا جاءهم كذبوه وجنَّنوه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

وهذه طنطنة وغوغائية دعائية هي آخر المطاف لهم في تزييف موقف الرسالة، أن ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ إذ يقول ما لا نقول به، ويعد ما لا نعرفه، فبيننا وبينه حجاب المعرفة، ﴿بَلْ﴾ كل ذلك دعوى بلا حقيقة ولا برهان ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بكلِّ آياته وبيناته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ وأقلهم لا يعرفونه قصوراً أو تقصيراً فهم له منكرون، قصوراً كالمستضعفين الذين لا يجدون

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.